علاقة اللّغة بالفكر عند التنويريّين العرب دراسة تحليليّة

The Relationship of Language and Thought to the Enlightenment Arab: An Analytical Study

أ. د. مؤيد عبيد صوينت الباحث: حيدر حسن عبيد

الجامعة المستنصرية– كلية الآداب –قسم اللغة العربية الجامعة المستنصرية– كلية الآداب –قسم اللغة العربية

Prof. Dr.moaid Obaid Swenet . Haider Hassan Obaid

Al-Mustansiriya University - College of Arts - Department of Arabic Language.

dr.moaid79@gmail.com Email.zs11121981@gmail.com

المستخلص :

تعدُّ اللغة من أهم الخواص التي يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات على وجه الأرض. ولما كان الإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على التفكير المنظم، فكان من البديهي أن ترتبط اللغة بالفكر. وهي علاقة كانت ولا زالت تمثّل حقلًا خصبًا وميدانًا واسعًا لكثير من الأبحاث المتنوعة والمتعددة؛ لذا تباينت مواقف الباحثين وتغايرت تصوراتهم في توجيه هذه العلاقة، وهو أمر في الحقيقة ناتج عن اختلاف مذاهبهم الفكرية ومرجعياتهم الثقافية؛ إلا أنَّ تلك الصعوبة لا يمكن أن تحول دون الوصول إلى حقيقة أيّهما يسهم في تشكيل الآخر. وسنسعى من خلال دراستنا هذه تسليط الضوء على تصورات التنويريين اللغوية حول علاقة اللغة بالفكر، بدءًا من التعريف بمصطلح التنوير ومفهومه وأبعاده بين الباحثين العرب والغرب، وعلى الأثر ذاته سنحاول تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور رئيسة اعتمادًا على مواقف التنويريين العرب وتصوراتهم الفكرية واللغوية، بغية الوصول إلى نتائج جديدة في هذا الحقل.

الكلمات المفتاحيّة: (اللّغة، التفكير، العقل، السلطة)

Abstract:

Language is one of the most important characteristics that distinguishes man from other creatures on earth. Since man is the only creature capable of orderly thinking, it was self-evident that language is associated with thought. It is a relationship that was and still represents a fertile field and a wide field for many diverse and multiple researches; Therefore, researchers' positions and perceptions varied in directing this relationship, which is in fact the result of their different intellectual doctrines and cultural references.

However, this difficulty cannot prevent access to the truth of which of them contributes to the formation of the other. Through this study, we will seek to shed light on the Enlightenment's linguistic perceptions about the relationship of language to thought, starting with the definition of the term Enlightenment, its concept, and its dimensions among Arab researchers and the West, and with the same effect, the researcher will try to divide the research into three main subjects depending on the positions of the Enlightenment Arab and their intellectual and linguistic perceptions, to reach the new results in this field.

Keywords: *(Language, Thinking, Mind, Authority)*

المقدمة:

بداية أجد من الضروري أن نلقي الضوء على مفهوم التنوير، وما هي الظروف التي أفرزته؟ وكيف انتقل إلى العالم العربي؟ ليتسنى لنا التعرّف على أهدافه وأبعاده عند الأوربيين أو الفكر الغربي عمومًا، ومن ثم طرح أفكار التنويريين عن علاقة اللغة بالفكر.

يكاد يُجمع الباحثون على أنَّ التنوير حركة فلسفية بدأت في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تميزت بفكرة التقدم، وعدم الثقة بالتقاليد، وبالتفاؤل والإيمان بالعقل، وبالدعوة إلى التفكير الذاتي المستقل، والحكم على أساس التجربة الشخصية (الجليند، ١٩٩٩م، صفحة ١٢). وقد نشأ هذا المصطلح في ظروف تاريخية عاشتها دول أوربا شرقًا وغربًا، كانت ثقافة الشعوب في أوروبا خلالها قاصرة على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها، وكانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر الطبيعية خاضعة لرجال اللاهوت الكنسي، لا يجوز مخالفتها، باعتبارها وحيًا لا تجوز مخالفته (بغورة، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٤).

أمَّا مصطلح التنوير في الخطاب العربي الحديث فيطلق بشكل عام على حركة التوعية والتثقيف والتجديد التي حدثت في العالم الإسلامي منذ قرنين من الزمن واتسمت بتأثرها بالطريقة الغربية وبإعجابها بالغرب وعلومه وتقدمه الفكري والعلمي وبتيار النهضة والإحياء الذي عرف فيه في القرون الأخيرة، بل أنَّ هناك من يقول بأنَّ تيار التنوير في العالم العربي الحديث بدأ مع الحملة الفرنسية البونبارتية وما أحدثته من صدمة ثقافية وحضارية ووعي

فكري وثقافي، وقد وجدنا من ينظر اليوم إلى هذه الحملة نظرة إيجابية استحسانية، ويطالب بإعادة تقويم هذه الحملة وإعادة تحليل أهميتها وآثارها والحكم عليها من وجهة النظر التنويرية التقدمية التاريخية (الصباغ، ٢٠٠٥م، صفحة ١١).

وبالعودة إلى علاقة اللغة بالفكر، فيمكن القول إنَّ البحث في هذه العلاقة يرجع إلى زمن الحضارة اليونانية القديمة وكتابات الفلاسفة اليونان وبخاصة أفلاطون وأرسطو، إذ اتخذ الفلاسفة اليونان من هذه العلاقة منطلقًا مهمًا لتحليل بعض المسائل المنطقية المتعلقة بقضايا الإنسان، ومن نافلة القول أن نبدأ بأرسطو، إذ يقول: ((إنَّ الكلامَ رمزٌ لما في العقل، والكتابة رمزٌ للكلام، وكما أنَّ حروف الكتابة ليست واحدة بالنسبة لكلّ البشر، فكذلك الألفاظ، غير أن المعقولات– التي تعد هذه الألفاظ علامات مباشرة لها– واحدة بالنسبة للجميع، وكذلك الأشياء القائمة في العالم الخارجيّ– التي تعد هذه المعقولات صورًا لها– متماثلة بالنسبة للجميع)) (محسب، ١٩٩٧م، صفحة ١). وهذا يعني أنَّنا إزاء نظرية ترى اللغة انعكاسًا مباشرًا للفكر يتسم بوجود سابق على اللُّغة وبطابع كلي لا اختلاف بين البشر فيه، يوازيه تماثل في إدراك الأشياء في العالم الخارجي، أي: أنَّ الواقع لا يختلف إدراكه من شخص لآخر، ومن ثم فإنَّ دور اللغة–وفق التَّصوّر الأرسطي–لا يزيد على كونها (ناقلة) لهذا المحتوى الذهني المتماثل لدى جميع البشر (محسب، ١٩٩٧م، الصفحات ١–٢) .

أمّا في العصر الحديث فقد أُعيد النظر في هذه العلاقة على يد عدد من الباحثين الغربيين، وقد توزعت آراؤهم في هذا المجال تحت عدد من النظريات أو الفرضيات، وكان من أهمها. "**فرضية الحتمية اللغوية** Linguistic Deteminism" يرجع تاريخ هذه الفرضية بشكل عام إلى فلاسفة المثالية الرومانسية الألمانية في القرن الثامن عشر في سياق هجومهم على المفهوم الذي ساد في عصر النهضة، والذي كان امتدادًا للنظرية الأرسطية القائلة أنَّ اللغة تالية لوجود الفكر، وأنَّها ليست إلا (ناقلة) لمحتواه، ومنهم: "يوهان هيردر" (J. Herder) (١٧٤٤– ١٨٠٣) الذي أكد: ((أنَّنا باللُّغة نتعلّم التفكير، ومن ثم فإنّنا إذا أردنا تحليل الفكر، فليس من وسيلة إلا تحليل اللُّغة)) (محسب، ١٩٩٧م، الصفحات ٨–٩)، و"فيلهلم همبولدت" (W. Humboldt) (١٧٦٢– ١٨٣٥) الذي رأى أنَّ اللغة هي التي تحدد الفكر وأنَّ الاثنين متلازمان، بل أنَّه يذهب إلى حدٍّ يرى أنَّ اللغة هي الفكر، فيقول: ((إنَّ اللغة هي العضو الأساسي للفكر... فالفكر واللغة هما شيء واحد وغير قابلين للانفصال)) (حمد، فرضية الحتمية اللغوية، ٢٠٠٠م، صفحة ١١).

ثم يأتي عالم الاجتماع الأمريكي "**بنيامين وورف**" **(B. Whorf)** (١٨٩٧م – ١٩١٤م)، بما يُعرف بـ"**نظرية النسبية اللغوية**" (Linguistic relatlvity) والتي أحدثت تأثيرًا واسعًا منذ العقود الوسطى من القرن الماضي ولا زالت، سواء في الفكر اللُّغوي، أو الفلسفي، أو النَّفسي، أو الاجتماعي، ومجمل ما توصل إليه "**وورف**" في **نظريته**

النسبية: ((أنَّ مستخدمي أنظمة نحوية واضحة الاختلاف تقودهم نحو أنماط مختلفة من الملاحظة، وتقويم الأحداث الخارجية المماثلة، وعدم المساواة في الملاحظة، بل والوصول إلى رؤى مختلفة للعالم بدرجة ما)) (محمد، ٢٠٠٨م، صفحة ٤٥٣)، بمعنى: ((أنَّ اللُّغة تتحكّم بالفكر وتوجهه وجهة مُعيّنة ليس بسبب من مفرداتها فحسب بل وبسبب شكل البنية الداخلية أيضًا)) (خرما، ١٩٧٨م، الصفحات ٨٧-٨٨). يبدو تأثر الباحثين العرب -وخصوصًا التنويريين منهم-واضحًا فيما طرحه أصحاب تلك النظريات. وقد انقسموا في توجيه علاقة اللغة بالفكر إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يقوم هذا الاتجاه على أساس **التوحيد** أو **التطابق** بين اللغة والفكر، أي: **أنَّهما شيء واحد،** ولا فرق بينهما، فاللغة هي الفكر والفكر هو اللغة تبنى هذا الرأي كبار الباحثين الغربيين أمثال: اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٣). والفيلسوف النمساوي "لودفيج فيتجنشتاين" Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) وعالم النَّفس الأمريكي "جون واطسون" John B. Watson (١٨٧٨-١٩٥٨). والفيلسوف الفرنسي "موريس ميرلوبونتي" Maurice Mearleau -Ponty (١٩٠٨-١٩٦١). والفيلسوفة البلغارية الفرنسية "جوليا كريستيفا" Julia Kristeva(١٩٤١). يرى أصحاب هذا الاتجاه أن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة؛ إذ لا يمكن الفصل بينها، فهما متلازمان تلازم صفحتي الورقة الواحدة، ومن ثم فلا استقلالية للفكر عن اللغة ولا للغة عن الفكر، كما أنه لا أسبقية لهذا على تلك أو العكس (داود، ٢٠٠٩م، صفحة ١٩٩)، ومن أشهر التنويريين الذين تبنوا هذا الاتجاه:

زكي نجيب محمود: تكتسب هذه الفرضية أهمية كبرى في مشروعه؛ لأنَّ اللغة برأيه عماد التجديد، ومن اللغة تبدأ ثورة التجديد. يعبِّر عن ذلك في كتابه "**تجديد الفكر العربي**" فيقول: ((لست أتصور لأمة من الأمم ثورة فكرية كاسحة للرواسب، إلا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها؛ لأنَّ اللغة هي الفكر ومُحال أن يتغير هذا بغير تلك)) (محمود، ٢٠١٨م، صفحة ١١٩).

وفي كتابه "**أفكار ومواقف**" يُبدي استغرابه ممَّن يذهبون باتجاه التفريق بين اللغة والفكر، فيكتب: ((من أوهام الإنسان، التي توشك أن تكون جزءًا من فطرته، ظنه بأنَّ فكره شيء ولغته شيء آخر؛ حتى لتراه كثيرًا ما يلجأ في تصوير العلاقة بين الفكر واللغة، إلى التشبيه بالشراب والكأس، أو بالثوب والبدن، كأنَّما الفكر ينسكب في العبارة اللفظية كما ينسكب الماء في القدح، أو كأنَّما اللغة يمكن أن تتعرَّى عن الفكر فتكون كالجسد العاري، لا يكتسي إلا إذا لبس ثوبًا من أفكار)) (محمود، أفكار ومواقف، ٢٠١٩م، صفحة ١٥٥).

ووفقًا لهذا التصور يرى أنَّ: ((حقيقة الأمر هي ألا فكر عندي وعندك إلا ما قد ورد في لفظي ولفظك، لا زيادة هناك ولا نقصان هنا، بل وليس الأمر شيئين قد يتصلان وقد ينفصلان كما نشاء نحن لهما، بل الذي هناك

هو شيء واحد، ألا وهو اللفظ ودلالته؛ فهو كالمصباح وضوئه، وكالزهرة وعطرها. فإذا وجدتَ في قولٍ قاله لك قائل، فاعلم أنَّ الغموض هو كذلك في فكره، والعكس صحيح كذلك؛ أي أنَّه إذا كانت الفكرة مضطربة في رأس صاحبها، فلا بدَّ أن تجيء عبارته عنها بالدرجة نفسها من الاضطراب)) (محمود، أفكار ومواقف، ٢٠١٩م، صفحة ١٥٥).

ومن الملاحظ أنَّه حين يعالج علاقة اللغة بالفكر، لا يرى أنَّ كلَّ منطوق يمكن أن نسميه فكرًا؛ لأنَّ من النطق ما هو هراء وتخليط كتخليط المجانين **تلك ملاحظة أولى، أمَّا الثانية:** ضرورة التمييز بين نوعين من اللفظ الذي يكون فكرًا. النوع **الأول** هو ارتباط الكلام بالواقع الخارجي، والنوع **الثاني** ارتباط الكلام بالكلام فقط. ويظهر أنَّ "محمود" يشير إلى مبدأين مهمين لكي يعبّر الكلام عن الفكر، هما: **(الإفادة من الكلام**، أي: أن يكون الكلام ذا فائدة، **والواقعية**، أي: أن يعبر عن الواقع، وهذه المبادئ قد أشار إليها علماء العربية من ذي قبل. لكنه وبعد أن عرض ملامح تصوره من طريق الملاحظتين السابقتين انتهى **إلى أنَّ العربية الفصحى كما نراها في تراثنا الأدبي،** لم تكن أداة للاتصال بمشكلات العالم الأرضي، ولا وسيلة للثقافة المتصلة بحياة الناس وأزماتهم؛ لذلك لم يجد المتكلمون بالعربية مفرًّا لهم من أن يخلقوا –إلى جانب الفصحى–لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية (محمود، تجديد الفكر العربي، ٢٠١٨م، صفحة ١١٩).

في الحقيقة لا يمكن إغفال الدور الذي يلعبه التيار الوضعي في الفكر العربي المعاصر، إذ يعدُّ من أكثر التيارات الفلسفية ارتباطًا بموضوع اللغة، ولا نجانب الصواب إذا قلنا أنَّ الفضل يعود إلى "د. زكي نجيب محمود" في إذاعته بين الناس منذ أربعينيات القرن العشرين إلى الآن، ولكن هذا لا ينفي مناقشة تصوراته. وبالخصوص رأيه في علاقة اللغة بالفكر.

يرى الأستاذ "الزواوي بغورة" أنَّه إذا كان المقصود العام من عبارته –من النطق ما هو هراء وتخليط كتخليط المجانين–مفهوم. فإنَّ مناقشة العبارة مناقشة دقيقة يقتضي القول أنَّ ليس هنالك هراء إلا في سياق معين، وأنَّ لغة المجانين يتم تحليلها، وأنَّها منطوق يحمل دلالته، وخير دليل على ذلك هو التحليل النفسي الذي يتميز بتحليل "الهراء" و"التخليط"، ولكن المعيار الوضعي بمحدوديته وضيقه لا يستطيع فهم الجوانب المتعددة للغة. وفي تقديره، فإنَّ شروط صحة الكلام تفرض اعتماد التمييز الذي أجراه "ابن جني" بين القول والكلام من حيث أنَّ القول صوت فقط أو حركة الشفتين، وأنَّ الكلام هو اكتمال اللفظ حتى بات مستقلًا بنفسه، ومفيدًا لمعناه، والنتيجة هي: "لئن كان كل كلام قولًا، فليس كل قول كلامًا". أمَّا وجهة النظر للملاحظة الثانية فإنَّه – أي "الزواوي" يرى أنَّ هذا التعبير مغاير للتعبير الوضعي الذي يفصل بين القضايا العلمية وغير العلمية أو الميتافيزيقية (بغورة د.، ٢٠١٧م، الصفحات ٦٣– ٨١– ٨٢).

ويمكن أن نجد في الموقف الفلسفي لـ"ديكارت" سندًا لنقض التوحد بين اللغة والفكر، وبالأخص في ثنائيَّة: النفس/ الجسم، عندما يشير إلى أنَّ الفكر ليس ماديًّا مرتبطًا بالنفس، بل هو طبيعتها المميّزة لها، أمَّا اللُّغة فتنتمي إلى الجسم بسبب طبيعتها المادية "الأصوات، الكتابة..."، ومن غير الممكن تصوُّر علاقة اتصال بين هاتين الطبيعتين المتمايزتين (داود، ٢٠٠٩م، الصفحات ٢٠٥-٢٠٦)؛ لذا يبدو أنَّ توجيه العلاقة نحو التوحيد بين الفكر واللغة والتطابق التام بينهما، فإنَّ العلاقة بهذا الاعتبار ستفقد وجودها من الأساس، ناهيك عن أهميتها لدى أصحاب هذا الاتجاه؛ إذ إنَّهم-بمثل هذا الرأي-يدعون إلى التخلّي عن المشكلة من أساسها. فلا مجال للتساؤل عن علاقة التفكير باللغة أو الكلام؛ إذ لا وجه للسؤال عن علاقة الشيء بذاته (داود، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٠٢).

الاتجاه الثاني: أنَّ للغة دورًا أساسيًا في تشكيل الفكر، فاللغة-عند من يتبنون هذا الاتجاه-ليست فقط أداة ووسيلة يستخدمها الفكر، بل هي أيضًا الوعاء الذي يتشكَّل فيه الفكر (داود، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٣٩). وعلى هذا تحتل اللغة مكانة بارزة تكاد تكون مطلقة في التفكير. يظهر ذلك التصور جليًا في مشروع "**د. سلامة موسى**" التنويري، إذ نجده قد رصد أبعاد تلك العلاقة من زوايا متعددة، من أهمها مدى تأثير اللغة على سير التفكير، وتأثيرها على تكوين قدرة التفكير، وعلاقة اللغة بالمنطق، ودور اللغة في التحليل الفلسفي، وإذا ما كان التأثر والتأثير بين اللغة والفكر من جانب واحد أم تفاعلًا ثنائيًا، وما إلى ذلك. وقد عبَّر عن الفكرة ذاتها في مواضع متعددة وفي كثير من مصنفاته منها: "**البلاغة العصرية واللغة العربية**" و"**دراسات سيكولوجية**" (موسى، ٢٠١٦م، الصفحات ٣٣-٣٤)، و"**محاولات سيكولوجية** (موسى، محاولات سيكولوجية، ٢٠١٣م، الصفحات ٣٣-٣٤)، و"**عقلي وعقلك**" (موسى، عقلي وعقلك، ٢٠٢٠م، صفحة ٦٧). إذ يقول **مثلًا**: ((الكلمات أفكار، وأنَّنا لا نستطيع أن نفكِّر بلا كلمات)) (موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، د. ت، صفحة ٥٣). ويشير كذلك إلى أنَّ: ((تفكيرنا يمتاز عن تفكير الحيوان بالذكاء؛ لسبب عظيم... أنَّنا نفكر بالكلمات، وصحيح أنَّنا نستطيع التفكير الساذج البدائي بلا كلمات، كما يحدث في الأحلام، ولكن التفكير الذي تتداخل فيه العوامل وتنبسط ساحته؛ يحتاج إلى كلمات، ويكاد يكون من المستحيل أن نفكر بذكاء أو منطق في أي موضوع بلا كلمات)) (موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، د. ت، صفحة ١٨). ويُعضِّد تصوره بقول العالم الأمريكي "واطسون" (١٨٧٨-١٩٥٨): ((**إنَّ التفكير هو كلمات غير منطوقة**)) (موسى، عقلي وعقلك، ٢٠٢٠م، صفحة ٦٧). أي **أنَّ**: "**التفكير كلام صامت**" وزاد "موسى" عليه أنَّ: ((الكلام هو تفكير ناطق... **وعندنا من الحقيقة الواقعة في نسيان الطفل لأيام طفولته ما يرجح صحة هذا القول.** فإنَّ الطفل تقع به أشياء كثيرة في السنتين الأوليين من عمره، ولكنه لا يذكرها لأنه لم يتعلم الكلام وما دام هو يجهل الألفاظ فإنه يجهل التفكير... **فالكلمة هي الفكرة واللغة هي الوسيلة للتفكير**)) (موسى، قيمة اللغة في التفكير، ١٩٣٥م، صفحة ١).

وأول ما يلاحظ على هذا الطرح هو أنَّ الأستاذ "سلامة موسى" يكرِّر مثل هذه التصورات في مواضع عدِّة وفي كثير من مصنفاته من دون نقاش كافٍ. كما يمكن لأيّ باحث وبسهولة ملاحظة أنَّ تحديد "موسى" لماهية علاقة اللغة بالتفكير يعتمد على موقف السلوكيين، يظهر ذلك واضحًا في قوله: «الكلمة هي الفكرة» هو صدى مباشر لهم، ويؤيد ذلك أيضًا استعارته قول "واطسون" "**التفكير كلام صامت**" ثم إلحاقه بالقول "**الكلام هو تفكير ناطق**" (صالح، ٢٠٠٧م، صفحة ٢٣٢). **يضاف إلى ذلك أنَّ استناده إلى فرضية نسيان الطفل لأيام طفولته لترجيح صحة هذا القول، فيه نظر كذلك؛ كونه يدخلنا في إشكالية أسبقية الفكر على اللغة أو العكس التي لم تُفصل حتى الساعة** (داود، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٠٣).

أمَّا عن تصوره القائل بأنَّنا "لن نستطيع أن نفكر بأكثر مما تعطينا الكلمات من معانٍ" **فيبدو أنَّ "موسى" لم يُكمل مشواره معه حتى النهاية، إذ** إنَّه يتراجع – في المرحلة الأخيرة من حياته على وجه الخصوص –من النبرة الشديدة في التأكيد على دور اللغة في التفكير، إلى "**نسبية العلاقة**". وقد رفض المطابقة الميكانيكية بين اللغة والتفكير (صالح، ٢٠٠٧م، صفحة ٢٣٣). يدلك على ذلك قوله: ((حاول أيُّها القارئ أن تتخيل فهم هذه المعاني، مع الفرض بأنَّك وُلِدتَ أخرس وعشت بين خُرِس ليس لهم لغة: "بعد خمسة أيام من الآن/ هذا الرجل يكذب كثيرًا ولكن أكاذيبه بيضاء..." ويجب ألا تفرض أنَّك أخرس تعيش بين ناطقين؛ لأنَّك في هذه الحال تسمع الكلمات وتعرف أنَّها رموز لهذه المعاني، ولكن أفْرضْ أنك أخرس بين خُرس لم تسمع قطُّ كلمة ولم تنطق بها، ففي هذه الحال يستحيل عليك تخيل هذه المعاني؛ **ومن هنا نعرف أنَّ اللغة إذا لم تكن هي التفكير نفسه فهي التي تربط معانينا وتسهِّل تفكيرنا**، وهي التي جعلت الحاضر الوجدان مستطاعًا إلى أقصى حدوده الحاضرة في أذهاننا)) (موسى، عقلي وعقلك، ٢٠٢٠م، صفحة ٦٨).

وبهذا يمكننا فهم أن ما يقصده بربط المعاني وتسهيل التفكير هو تلك العملية التي تجعل الصور تتمثل في عقل الإنسان عند ذكر الكلمات المعينة، فتكون اللغة أداة للتفكير وسبيلاً له. **وبالتالي فمن المؤكد** أنَّ التعيين من خلال اللغة يسهل على الإنسان ليدرك بطريقة أسرع، وليتذكر زمانًا أطول وتفصيلًا أدق. إلا أنَّ الإدراك دون كلمات ليس أمرًا مستحيلًا، بدليل أنَّنا نصنع ونخصص كلمات جديدة لأشياء وأفكار مبتكرة (صالح، ٢٠٠٧م، صفحة ٢٣٣).

ويظهر أيضًا أنَّ "د. هشام شرابي" يؤيد تأثير اللغة في الفكر، ويحاول أن يستثمر النتائج المترتبة عن ذلك التأثير لبيان ما للغة العربية الفصحى من سلطة على الفكر العربي، وترسيخ النظام الأبوي في المجتمع العربي عبر حقب طويلة الأمد، فيقرِّر: ((إذا كانت اللغة تكوِّن الفكر، فإنَّ العربية الفصحى تكوِّن الفكر بشكل حاسم)) (شرابي، ١٩٩٣، صفحة ١٠٦). ويضيف: ((أنَّ "لغة" خطاب النظام الأبوي هي العربية الفصحى التي تعمل على صياغة

سبل المعرفة (المعتقدات والتصورات والمعلومات الموثقة) والوعي بالذات (أنماط إدراك الذات وعلاقاتها) الخاصة بثقافة الأبوية المستحدثة والتعبير عنها في الخطاب)) (شرابي، ١٩٩٣، صفحة ١٠٥).

ومن خلال هذا التحليل يتضح أن للعربية سلطة خاصة وخارقة للعادة، وهو أمر يحتاج إلى بيان وبرهان سواء من جهة تاريخ هذه اللغة، أم من جهة حاضرها. نعم إنَّ للغة سلطة تتمثل في نظامها الصرفي والنحوي والبياني، ولكن الإنسان يتدخل في هذا النظام ويطوعه لأغراضه، ويضيف إليه ويحذف منه، وينتقي منه ويختار فيه، ويتأثر ويؤثر فيه، وهو ما يعني أن سلطة اللغة تظهر كلما اعترف المتحدثون بها. والحقّ، أنَّ "هشام شرابي" يعيد إنتاج ما قاله "كلود ليفي ستروس" حول اللغة في علاقتها بالفكر من غير تمحيص وتدقيق، وبخاصة من جهة تطور الدراسات اللسانية، كما تتجلى في اللسانيات التحويلية التي أسسها "نعوم تشومسكي"، مؤسس البنيوية الانثربولوجية حين يشير إلى أنَّ (الألسنية تجعلنا في حضرة كائن جدلي، وخارج الوعي والإرادة : فاللغة هي عقل له قوانينه التي لا يدركها الإنسان)، إنَّ فكرة أنَّ اللغة تمثل نوعًا من اللاشعور، أو البنية الخفية، أو القبلي الفكري، تعتبر من جهة أطروحة نظرية تقابلها أطروحة أخرى تقول بأسبقية الفكر على اللغة، وترى في اللغة مجرد نظام معرفي أنتجه الإنسان؛ ومن جهة أخرى، فقد تجاوز البحث اللساني، هذه الأطروحة البنيوية، وبخاصة من جهة اللسانيات الوظيفية والاجتماعية (بغورة د.، ٢٠١٧م، الصفحات ٤٧-٤٨).

واعتقد أنَّ "**د. محمد عابد الجابري**" كان من أكثر المهتمين بتوجيه العلاقة باتجاه "تأثير اللغة في الفكر" إذ شغلت هذه المسألة حيزًا واسعًا في مشروعه العلمي شرحًا وتحليلًا ونقدًا، يظهر ذلك جليًّا في مشروعه التجديدي سلسلة "**نقد العقل العربي**" بحث فيه أهم العوائق الإيبستيمولوجية التي ساهمت في قولبة العقل العربي، أي: البحث في أساسيات المعرفة، ونظامها وآليات إنتاجها داخل الثقافة العربية، انطلاقًا من مسلمة أنَّ كل ثقافة تحمل جنسية اللغة التي تنتجها. نلحظ ذلك في المطلب **الموسوم بـ"اللفظ والمعنى منطق اللغة ومشكل الدلالة"** في كتابه "**بنية العقل العربي**" إذ صرَّح في بداية دراسته للموضوع: ((إنَّ ما يهمنا هنا ليس التأريخ لآراء هؤلاء وأولئك حول هذه المسألة، ولا دراسة ما يمكن أن يطلق عليه بـ"نظرية المعنى" عند المفكرين البيانيين، **إنَّ ما يهمنا أساسًا هو الجانب الإشكالي فيها ومدى مساهمتها في قولبة العقل العربي، أي تحديد مرتكزاته وطريقة نشاطه ونوع علاقته باللغة وتعامله معها**)) (الجابري، ٢٠١٨م، صفحة ٤١).

وقد زاد الموضوع إيضاحًا في كتابه "تكوين العقل العربي"، إذ أفرد له فصلًا بعنوان "**الأعرابي صانع العالم**" حاول فيه البحث عن مصادر تكوين هذا العقل وطريقة تشكله (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٥). يشير "الجابري" في مطلعه إلى أنَّ ثمَّة معطيات كثيرة يمكن أن تُبرِّر إعطاء الأولوية للغة العربية في دراسة مكونات العقل العربي، وأول تلك المعطيات أنَّ: ((العربي يحب لغته إلى درجة التقديس، وهو يعتبر السلطة التي

لها عليه تعبيراً ليس فقط عن قوتها، بل عن قوته هو أيضاً؛ ذلك لأن العربي هو الوحيد الذي يستطيع الاستجابة لهذه اللغة والارتفاع إلى مستوى التعبير البياني الرفيع الذي تتميز به)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٥).

أمَّا المعطى الثاني: **فهو ارتباط الدين الإسلامي باللغة العربية، ويعدَّه "الجابري" زاوية أخرى يمكن من خلالها تبرير إعطاء** الأولوية للغة العربية في دراسة مكونات العقل العربي **((ذلك لأنَّه إذا كان أهم ما ساهم به العرب في الحضارة الإسلامية التي ورثت الحضارات السابقة لها هو اللغة والدين، فإنَّ الدين الإسلامي بقي عربيًا، ولا يمكن** أن يستغني عن لغة العرب؛ لأنَّ القرآن هو "كتاب عربي مبين" لا يمكن نقله إلى أي لغة أخرى دون المساس به. فـ"العربية جزء ماهيته"... ونستطيع أن ندرك أبعاد هذا المبدأ الأصولي في الإسلام إذا لاحظنا ذلك الدور البالغ الأهمية الذي تلعبه اللغة العربية في الدراسات والأبحاث الإسلامية، عقيدة وشريعة، أنَّ كثيرًا من الخلافات المذهبية، الكلامية والفقهية، مرده إلى اللغة، أي ما تتوفر عليه اللغة العربية من فائض في الألفاظ، وما يتوفر عليه اللفظ العربي من فائض في المعنى، وما تتميز به التراكيب العربية من تنوع)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٥).

المعطى الثالث: ((أنه المعطى التكويني نفسه، ذلك أنَّ الواقع التاريخي يؤكد بما لا مجال للطعن فيه أن أول عمل علمي منظم مارسه العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها. وفي هذه الحالة يكون من "الطبيعي" تمامًا أن يُتَّخذ العمل العلمي الأول، الذي أنتج علم اللغة وعلم النحو، أنموذجاً للأعمال العلمية الأخرى التي قامت من بعده)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٦).

من الواضح أنَّ "الجابري" يسعى –ومن خلال عرض تلك المعطيات–إلى إبراز دور اللغة العربية في التأثير على الفكر العربي، وقد استعان بآراء بعض الباحثين الغربيين الذين كتبوا في هذا المجال، يقول: ((إذا أضفنا إلى ذلك ما أكدته دراسات حديثة عديدة من كون اللغة – أي لغة–تحدِّد، أو على الأقل تساهم مساهمة أساسية في تحديد نظرة الإنسان إلى الكون وتصوره له ككل وكأجزاء، ولاحظنا أنَّ اللغة العربية ربما كانت اللغة الحية الوحيدة في العالم التي ظلت هي هي في كلماتها ونحوها وتراكيبها منذ أربعة عشر قرنًا على الأقل، أدركنا مدى ما يمكن أن يكون من تأثير لهذه اللغة على العقل العربي ونظرته إلى الأشياء، تلك النظرة التي لا بد أن تتأثر قليلًا أو كثيرًا، بالنظرة التي يتجرُّها معها اللغة العربية منذ تدوينها، أي منذ عصر التدوين ذاته)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٦).

هكذا يعمد "الجابري" إلى نقل آراء عدد من الباحثين الغربيين أمثال "هردر" Herder (١٧٤٤-١٨٠٣)، و"أدوارد سابير" بواسطة "آدم شاف" حول اتجاهات الرأي في علاقة اللغة بالفكر داخل الدراسات اللغويّة منذ القرن الثامن عشر إلى اليوم فيقول: ((ابتداءً من هردر وولهلهم فون همبولت على الأقل تبنت الدراسات اللغوية مرات عديدة الأطروحة القائلة **بأنَّ منظومة لغوية ما (الشيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها، بل أيضاً نحوها وتراكيبها) تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم. أننا نفكّر كما نتكلّم... الشيء الذي يعني أنَّ اللغة تحدّد قدرتنا على الكلام، نفسها التي تحدّد قدرتنا على التفكير**)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٧).

وعلى الرغم من أنَّ "الجابري" يتفق مع ما ذكره الباحثون الغربيون في أنَّ اللغة تؤثر في الفكر، إلا أنَّنا نجده يزيد عليهم بأنَّ ((اللغة ليست مجرد أداة للفكر، بل هي أيضًا القالب الذي يتشكل فيه الفكر)) (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٧). لذا يعدُّ "الجابري" اللّغة العربية من أهم العوائق الإبستيمولوجية التي تؤدي إلى عرقلة تقدّم العلوم البيانية التي اعتمدت على اللغة بمستواها النظري والعملي. **ولتأكيد الآراء السابقة والبرهنة على صحتها حاول "الجابري" النظر في الكيفية التي تُحدِّد اللغة بها الفكر وتصنع العالم، يستقي عددًا من الأمثلة التي يسوقها علماء الغرب والإثنولوجيا من الشعوب المسماة "بدائية"**. وهكذا فالأسكيمو مثلًا يتوفرون على عدد هائل من الكلمات التي تخص الثلج: أنواعه، تحولاته، تراكمه... إلخ، ومن دون شك فإنَّ الإنسان العربي في العصر الجاهلي –وكذلك سكان المناطق الصحراوية اليوم –يتوفر على عدد هائل من الكلمات التي تخص الحرارة: درجاتها، أنواعها، تغيرها بالعلاقة مع المكان والزمان ... إلخ. إذن فالعالم الذي تقدمه لغة الأسكيمو عن الحرارة سيكون فقيرًا جدًّا بالنسبة للعالم الذي تقدمه اللغة العربية لأهلها عن نفس الموضوع، كما أنَّ العالم الذي تقدمه اللغة العربية لأهلها عن الثلج سيكون فقيرًا جدًّا بالنسبة للعالم الذي تقدمه لغة الاسكيمو لأهلها عنه. وهكذا يستحيل تمامًا إقامة قاموس بين اللغة العربية ولغة الاسكيمو خاص بعالم الثلج وعالم الحرارة، لأنَّ هذين العالمين غير متكافئين في اللغتين. **والنتيجة: أنَّ اللغة لا تعكس الظروف الطبيعية وحسب، بل تحمل معها هذا الانعكاس نفسه لتنشره على أمكنة وأزمنة مختلفة، فتكون بذلك عاملًا أساسيًا، وأحيانًا حاسمًا، في تحديد وتأطير نظرة أصحابها إلى الأشياء. وإذا كان هذا صحيحًا بالنسبة لكل اللغات، فإنَّ للغة العربية خصوصية تنفرد هذا المجال** (الجابري، تكوين العقل العربي، ٢٠١٩م، صفحة ٧٨).

اعتقاد الجابري، كما أسلفنا، أنَّ اللغة ليست أداة للفكر فقط، بل هي أيضًا القالب الذي يتشكل فيه هذا الفكر، جعله ينظر إلى اللغة العربية الفصحى، لغة المعاجم والشعر والآداب، أنَّها لغة "**حسية بدوية صحراوية**" ما زالت تنقل لأهلها عالمًا بعيدًا عن عالمهم؛ عالم البداوة الذي استنسخته اللغة العربية في العصر الجاهلي. يعيشونه في

أذهانهم ووجدانهم وخيالهم، وهو يعاكس تمامًا عالمهم الحضاري الآني والمعقد. وعلى هذا الأساس بنى الجابري خلاصته المركزية وهي أنَّ الأعرابي فعلًا هو صانع العالم العربي؛ عالم البساطة والبداوة والحس (الجابري، التراث والحداثة، ٢٠٢٠م، الصفحات ١٤٤– ١٤٥).

يظهر أنَّ "الجابري" حرص طيلة طرحه للموضوع التأكيد على معطى مبدئي وأولي، وهو أنَّ اللغة العربية محدِّد أساسي في الفكر العربي، ومع أهمية طرحه هذا إلا أنَّ ما توصل إليه من نتائج يحتاج إلى توجيه بعض الملاحظات النقدية، ليست الغاية منها التقليل ممَّا قدمه الباحث، بل هي إضاءات وتوضيحات حان وقتها:

١. النص الذي نقله "الجابري" عن بعض الباحثين الغربيين لإثبات تأثير اللغة في الفكر نقلًا عن "آدم شاف" يكاد يخلو من أسماء علماء بارزين في الدرس اللساني اللغوي الحديث، على الرغم من أنَّ "الجابري" قد أعلن التزامه في مشروعه لنقد العقل العربي النظرة العلمية المعاصرة، والتصور العلمي في أقصى مراتبه، ومع ذلك: فـ((إنَّ أيّا من رواد اللسانيات الحديثة ... لا يرد له ذكر في مرجعياته: لا بنفنست، وشومسكي، ولا مارتنيه، وغارنر، ولا حتى سوسير أو بلومفيلد... فبضاعة الجابري من العلم اللغوي تبدأ ... مع هردر، وهمبولت، وتنتهي عند سابير الذي توفي عام ١٩٤١ ، ناهيك عن أنَّ هؤلاء الباحثين الذين أثبتهم "الجابري" لا يحضرون بأنفسهم وبكل كثافتهم بل يحضر منهم أشباحهم كما في نص آدم شاف المختزل)) (طرابيشي، د. ت، صفحة ١٢٤)، (خالص، ٢٠١٢م، صفحة ١١٩).

٢. ما دامت المرجعية المعلنة للجابري في نظرية اللغة هي إلى "هردر" و"همبولت" و"سابير" –المقروئين ثلاثتهم بمنظار "آدم شاف" –فلنذكر أنَّ هؤلاء الثلاثة ثمنوا العربية تثمينًا عاليًا، عكس صنيع الجابري. فـ"سابير" عدَّها مع السنسكريتية والصينية واليونانية واللاتينية والفرنسية واحدة من كبرى "اللغات الينابيع" في العالم، و"همبولت" لم يقارن بينها وبين لغات القبائل الأميركية الهندية أو لغة الأسكيمو أو أي قوم بدائي آخر، بل بينها –وإن جعلها في مرتبة ثانية –وبين تلك "اللغة المثالية" التي كانت عليها في تصوره اللغة السنسكريتية أو اليونانية. أمَّا "هردر" فقد تحدث عن "معجزة" العربية "الغنية والجميلة" التي خرجت من الصحراء لتقدم، بعد اليونانية، أنبل أداة للفلسفة وللعلوم (طرابيشي، د. ت، صفحة ١٣٣).

٣. أنَّ مثال "ثلج" الأسكيمو الذي قدَّمه الجابري ليس سديدًا. فهو مثال عن حالة حدية يمثل فيها الثلج عنصر الحياة الأساسي للسكان القطبيين. ومثل هذه الحالات الحدية في حضارات البشرية نادرة، ولا سيما أنَّ غالبية حضارات البشرية تركزت –ولا تزال –في المناطق المعتدلة، لذا من الصعب لأيِّ عالم باللسانيات المقارنة أن يفصل في مدى حمولة كل لغة من رؤية خاصة بها للعالم، ذلك أنَّ القانون الذي يحكم العلاقة بين اللغات، ولا سيما في

تلك العصور اللاتاريخية التي مثلتها مرحلة الهجرات الكبرى، هو قانون الارتشاح والتناضح. وكل لغة عطشى تشرب من أرض غيرها، ولا سيما إذا ما حدث تغير في شروط تجربتها. فاليونانية اضطرت إلى اقتباس الألفاظ الدالة على البحر والسمك، مثلًا على إثر نزوح الناطقين بها إلى السواحل اليونانية والأيونية. وقد يكون ذلك أيضًا شأن العربية مع الفرس ومستتبعاتها، إذا صح ما يفيدنا به المؤرخون من أنَّ شبه الجزيرة العربية لم تعرف "الحصان" قبل أن يستورده ملوك الحيرة في القرن الثاني للميلاد. **إنَّ وحدة مستوى التجربة شرط إذن للمقارنة اللغوية.** أمَّا الحالات الحدية فهي لا تؤدي، في اللسانيات كما في الأنثروبولوجيا، إلا إلى **علم للاختلاف،** والنتيجة: فإنَّ المقارنة بين لغة الأسكيمو القطبيين ولغة العرب "الصحراويين" نظير ما يفعل الجابري بالتبعية المكتومة لوورف، لا معنى لها. فمستويات التجربة تختلف بين العالمين اختلافًا غير قابل للقياس. والمقارنة لا تجوز –بالإحالة إلى عنوان كتاب في اللغة للسيوطي –إلا بين "الأشباه والنظائر" فهذا هو شرط خصوبتها. أمَّا الحالات الحدية فليس لها من مبدأ جامع سوى المفارقة أو الضدية (طرابيشي، د. ت، الصفحات ١٢٨– ١٣٠).

٤. الافتراض بأنَّ اللغة تسيطر على الفكر ومن ثمَّ تتحكَّم بنظرة الإنسان إلى الكون والواقع ككل، مقولة مرجوحة تمامًا، ولم يبقَ لها إلا ظلال هامشية في التفكير اللساني الغربي، يقول "جون لوينز": ((من الممكن القول إنَّ أغلب علماء النفس، اللسانيين، والفلاسفة يمكن أن يقرّوا بأنَّ هناك تأثيراً ما للغة على الذاكرة، والإدراك، والفكر، لكنهم يشككون في قبول الصيغة الأقوى لفرضية سابير– وورف)) (خالص، ٢٠١٢م، صفحة ١٢٣)؛ ويوافق رأي "لوينز" هذا عددٌ كبير من الفلاسفة واللسانيين أمثال: "مايكل ديفيت" و"كيم ستيروليني" و"ريتشارد هدسون" و"تشومسكي" و"كيت ألان" و"كلارك وكلارك" و"روبرت هول" و"ستيفن بينكر" (داود، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٥٣).

لذا ينبغي الإقرار بأنَّ اللغة لا تسيطر على التفكير من الألف إلى الياء، خذ على سبيل المثال الشعب ذا سبع كلمات تعين ألوان قوس قزح، يميزه بسبعة ألوان، في حين أنَّ الشعب الآخر ذا ثلاث كلمات خاصة بالألوان يميزه بثلاثة ألوان. ولكن عدم وجود كلمات تخص ألوانًا معينة لا يعني أنَّ الناطق باللغة لا يفهم ولا يدرك ألوانًا غير محددة بها، فهو يمكنه أن يميزها ويعبر عنها بواسطة صفات مثل قاتم أو فاتح... إلخ (صالح، ٢٠٠٧م، صفحة ٢٣٣).

فالأمر إذن لا يتعلَّق فقط بالفاعلية التصنيفية للغة، بل كذلك بالقابلية التصنيفية للأشياء بموجب قوانين العقل. فألفاظ التصنيف تختلف من لغة إلى أخرى، ولكن معاني التصنيف ومقولاته واحدة في جميع اللغات، ولولا موضوعية الواقع لاستحال هذا الاتفاق الكوني بين البشر على المعاني رغم اختلاف اللغات واختلاف الألفاظ (طرابيشي، د. ت، صفحة ١٢٢).

يناقش الباحث "جورج طرابيشي" تصور "الجابري" حول تأثير اللغة بالفكر من زاوية أخرى فيقول: ((صحيح أنَّ "الأمة تتكلّم كما تفكّر وتفكّر كما تتكلّم". لكن هذه الصيغة المستعارة مباشرة من "هردر"، لا تصدق على الأمم إلا في طورها الجماعي، وعندما تكون لغتها لا تزال غناء أو أقرب إلى الغناء، وقبل أن تنتقل إلى أطوار تالية من الحضارة وترجح فيها كفّة النثر كفة الشعر وتنبت للأفراد هويات شخصية... ولا شك أنَّ اللغة فاعلية وليست نتاجًا "وضعيًا"، ولكنها في الوقت ذاته "مرونة تشكيلية هائلة" وذات "خصوبة لا محدودة لا متناهية". فاللغة "لا تحتمل السكون" بل هي كالعِرْق الذي ينبض بتجدد دائم، واغتناؤها المتواصل يتم في اتجاهات ثلاثة: "تحت تأثير تقدم الثقافة... وتحت تأثير دينامية الأجيال... وتحت تأثير عبقرية الأفراد من الكتّاب... وبالتوازي مع هذا التقدم المتصل تطرأ على إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر تحولات ثلاث، **طور تشكل الجماعات اللغوية البدائية**، وتكون تبعية الفكر للغة تبعية تامة... **وطور الانتقال إلى الجماعات الثقافية والثقافات الجماعية**، تغدو العلاقة الفكر واللغة متبادلة متكاملة... وفي طور ثالث وأخير، **طور الأمم الحديثة القائمة على تفتّح الشخصية الفردية**، تمسي اللغة تابعة للفكر، فيسودها بدلًا من أن تسوده، ويطوّعها لتكون بين يديه وسيلة لاختراع حقائق جديدة وبناء وقائع. وفي هذا الطور الأخير تنتقل السيادة على اللغة من الجماعة أو الأمة إلى الفرد حصرًا ... وعلى هذا النحو تتبدد تمامًا (رؤية العالم) و (النظرة إلى الكون) التي تحددها اللغة لدى أهلها)) (طرابيشي، د. ت، الصفحات ١١٤- ١١٦).

٥. ضبط "الجابري" العلاقة بين اللغة والفكر من زاوية "الطابع الحسي"، ينمُ عن انعدام برنامج لساني ذي تصور نظري منهجي متماسك، يؤطر فيه تناول الظاهرة اللغوية؛ بل على العكس من ذلك نجد تحليل الجابري يطبعه كثير من التعتيم والحسم في قضايا لغوية هي إلى الآن مثار نقاش وجدال في الوسط اللساني الأكاديمي. وكان أجدر بالجابري أن يؤطر تحليله هذا في إطار علمي مضبوط، وليس في إطار الإسقاطات الفلسفية كما كان عند النحاة الفلاسفة. وكان عليه تجاوز تلك العلاقة المبهمة والغامضة ذات الطابع الفلسفي الميتافيزيقي بين اللغة العربية والفكر العربي (همام، ٢٠٠٣م، صفحة ١٣٠).

النتيجة: أنَّ رصد العلاقة بين اللغة والفكر من هذه النقطة في مشروع "الجابري" كان يفتقد كفايته النظرية والإجرائية، فالخلل وقع منذ البدء، وهو عدم طرح مبادئ ومسلمات نظرية وقرارات منهجية موازية على شكل تساؤلات محورية تمسك بتلابيب الظاهرة اللغوية عمومها من نحو: (ما الذي يميز اللغات الطبيعية عن غيرها من اللغات؟ وما السمات التي تلتقي فيها اللغات، وما السمات التي تختلف فيها، وإلى أي مدى تغيرت اللغات وإلى أي مدى ظلت قارة ؟ (همام، ٢٠٠٣م، صفحة ١٣٠).

الاتجاه الثالث: يرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ العلاقة متبادلة بين اللغة والفكر، أي: اللغة تؤثر بالفكر والفكر يؤثر في اللغة، ومن أهم القائلين بهذا الرأي:

– **أحمد أمين:** عرض هذا التصور حين تحدَّث عن منطق اللغة وقوة الحجة بين اللغة العربية واللغات الأخرى كالإنجليزية مثلًا، وتوصل إلى أنَّ لكل لغة منطقًا يخالف منطق اللغة الأخرى، وليس من الصحيح إرجاع المسألة إلى عقلية المتجادلين أو إلى ضعفهم في لغة وقوتهم في الأخرى. وعلَّل ذلك أنَّ ((أول ما يتبادر إلى الذهن أنَّ اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعاني، وليست إلا مظهرًا من مظاهر العقلية؛ فإذا كان التفكير صحيحًا سليمًا كان التعبير عنه كذلك ما دام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة، وإذا كان التفكير فاسدًا كان التعبير عنه فاسدًا متى وفق صاحبه للتعبير عمَّا يريد؛ **ولكن يظهر لي أنَّ المسألة أعمق من ذلك، وأنَّ هناك تفاعلًا بين اللغة والتفكير**، فاللغة المنظمة تعمل في تنظيم الفكر، والفكر المنظم يعمل في تنظيم اللغة وكذلك العكس)) (أمين، د. ت، الصفحات ١/ ١٨٩– ١٩٠).

كما يؤكد في موضع آخر أنَّ هناك ارتباطًا قويًا بين اللغة والخُلق، ويذهب كذلك إلى تبادل العلاقة بينهما، كالترابط المتبادل بين اللغة والفكر، وبعد أن يسوق بعض الأدلة، يخلص إلى أنَّ العقل واللغة والخُلق كلها تتفاعل، فإذا رقيت اللغة تبعه –نوعاً ما–رقي العقل والخلق، إذا رقي العقل تبعه –نوعًا ما–رقي اللغة والخلق، وهكذا (أمين، د. ت، صفحة ١/ ١٩٠).

أمَّا "**محمد أركون**" فقد أشار إلى هذه المسألة في معرض دراساته للفكر الإسلامي، ومنها بوجه خاص تأكيده على **العلاقة الثلاثية بين اللغة والفكر والتاريخ**، أو كما قال: ((إنَّي اعرف أنَّ اللغة والفكر في تفاعل مبدع ومستمر، وكلاهما يستمد غذاءه المشترك وديناميكيته الخلَّاقة من الممارسة الوجودية (الحياتية) اليومية: أي من التاريخ الفردي والجماعي معًا)) (أركون، ١٩٩٦م، صفحة ٧).

يظهر من خلال هذا النص أنَّ "أركون" لا يقول بسلطة اللغة؛ لأنَّه يشدِّد، كما هو واضح، على العلاقة بين اللغة والفكر والممارسة من دون تقديم أو تأخير لواحد من هذه العناصر، وأكد على ذلك برسم تخطيطي في شكل دائرة، يتألف من اللغة والفكر والتاريخ. وخلُص إلى أنَّ العربية ((**كسائر اللغات لها تاريخها الفكري الخاص**، أي منظومتها الخاصة من الدلالات الحافة المرتبطة بالنزاعات الإيديولوجية بين القوى الاجتماعية وأنها بحاجة إلى تطوير وتجديد)) (أركون، ١٩٩٦م، صفحة ٧). و هذا يدل أنَّ "أركون" –على الرغم من أنَّه لم يكتب كما هو معلوم، بالعربية، وإنَّما معظم نصوصه نشرها بالفرنسية– كان حريصًا على تجديد قاموس اللغة العربية، وبخاصة بالمصطلح اللساني والإنساني والفلسفي، وحاول القيام بذلك مترجموه، وعلى رأسهم هاشم صالح. وهو ما يدلل على أهمية ما قدمته الترجمة إلى العربية من إمكانات لتطوير اللغة العربية الفصحى (بغورة د.، ٢٠١٧م، صفحة ٥٧).

يؤيد الباحث ما قرَّره أصحاب هذا الاتجاه، على الرغم من صعوبة القطع في المسألة؛ كونها من الأمور التي لم يستقر على تحديدها الباحثون بعد، ولم يتَّفقوا على رأيٍ قاطع فيها، فالحديث عن الفكر في الحقيقة، حديث عن موضوع متعدِّد الجوانب في طبيعته، وليس أقلّ منه تعددًا في طبيعته الحديث عن اللغة، ولعلَّ لطبيعة تلك المشكلة من حيث هي مشكلة فلسفيَّة أكثر منها مشكلة لغويَّة دخلًا كبيرًا. ممّا يجعل المسألة لا تتحمل الجزم سلبًا أو إيجابًا (عمارة، ٢٠٠٤م، صفحة ٣١٧). ومع ذلك بالإمكان –على وجه العموم–توجيه المسألة بالشكل الآتي:

لا يمكن إنكار أنَّ مفردات اللغة ترمز إلى فكر. كل لفظة تشبه "**كبسولًا**"، يتضمن فكرة أو صورة ذهنية يرسخها الاختبار في العقل. فعندما نقول: "نمت الليلة نوما هانئًا"، فقولنا: "نمت" ترمز إلى حدث أو فعل يعرفه الآخرون بالاختبار، وليس من الضروري أن نفسر النوم وعملية النوم. وعندما نقول: "الليلة" فإنَّها تنقل إلى السامع فكرة أو صورة معينة، وكذلك عند قولنا: "نوما هانئًا" فمن هذه الجهة نجد أنَّ الفكر أو الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة، **ولكن هذا لا يعني أنَّه لا يمكن أن يكون هناك فكر أو صور أو حقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة، أو ليست متلبسة برمز، أي بصوت لغوي.** خذ مثلًا الحقائق الرياضية والحقائق الطبيعية فإنَّ لها وجودًا ذاتيًا بقطع النظر عن الرموز التي تشير إليها. ولكن يشك كثيرًا فيما إذا كان الإنسان يستطيع التفكير الرياضي، أو حل المعادلات الرياضية أو فهم حقائق الطبيعة بدون رموز. فهذا ناموس الجاذبية كان موجودًا قبل أن تتلبس الفكرة برمز لها، أي لفظة "جاذبية" وحقيقة الماء من أنَّه مزيج من عنصرين بمعادلة معينة كانت قبل أن نضع له الرمز العلمي H_2O (فريحة، ١٩٨١م، الصفحات ٥٨–٥٩)، وبالمثل صيغ مصطلح "ناطحة سحاب" Skyscraper للإشارة إلى ظاهرة معمارية حديثة؛ لذا فمن الحماقة أن نزعم أنَّ الناس لم يعرفوا هذه الظاهرة ولم يلاحظوها إلَّا بعد أن زودتهم اللغة بالكلمة المعبِّرة عنها (داود، ٢٠٠٩م، الصفحات ٢٥٤– ٢٥٥).

ولكن مما لا شكَّ فيه هو أنَّ اللغة تسهل الفكر، أو كما يصوِّرها "سابير" اللغة طريق ممهِّد أو أخدود كالأخاديد التي تراها على سطح أسطوانة تمهِّد وتحدِّد السبيل للإبرة لتمرّ فيه لتردِّد الصوت (فريحة، ١٩٨١م، صفحة ٥٩). فالفكر محتاج في ديمومته وبقائه، فضلًا عن كينونته وظهوره إلى اللغة، فهي له ومضة الوجود الفعلي في لحظة المباشرة الحسية، وهو لها لحظة التحول والتحويل من أصوات حسية لا قيمة لها أو فيها إلى أصوات منظمة تقول شيئًا، وتعني شيئًا، فتجمع الفرد إلى الجماعة فينتمي لها، وتنمو الجماعة بالفرد فكرًا ولغة أو لغة وفكرًا (عمارة، ٢٠٠٤م، صفحة ٣١٧).

فاللغة إذن تسهِّل الفكر، وتساعد على نمو الفكر. ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع. أنَّ ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح أو غير الواضح، ولكن هذه الفكرة المولودة جديدًا لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبس رمزًا لغويًا، أي ما لم تضمن الفكرة في "كبسول"

لغوي. عندها نشعر أنَّ الفكرة المولودة جديدًا قد أصبحت ملكًا لنا، وأصبحت تشكل جزءًا من تفكيرنا (فريحة، ١٩٨١م، صفحة ٥٩).

<u>نتائج البحث:</u> خلصت الدراسة إلى جملة نتائج يمكن إجمالها بالشكل الآتي:

١. البحث عن وجود نوع من التقارب بين اللغة والفكر لم يكن نتاجًا عصريًا خالصًا، وإنّما يرجع إلى عصور موغلة في القدم، إذ أرجعها بعض الباحثين إلى زمن الحضارة اليونانية القديمة وكتابات الفلاسفة اليونان، وبخاصة افلاطون وأرسطو، وقيل إنَّ فلاسفة اليونان اتخذوا من هذه العلاقة منطلقًا مهمًا لتحليل بعض المسائل المنطقية المتعلقة بقضايا الإنسان.

٢. توجيه العلاقة بين الفكر واللغة نحو التوحيد أو التطابق التام بينهما، يؤدي إلى انهيار العلاقة أساسًا، أي أنَّ العلاقة بهذا الاعتبار ستفقد وجودها من الأساس، ناهيك عن أهميتها لدى أصحاب هذا الاتجاه؛ إذ إنَّهم–بمثل هذا الرأي–يدعون إلى التخلّي عن المشكلة من أساسها. فلا مجال للتساؤل عن علاقة التفكير باللغة أو الكلام؛ إذ لا وجه للسؤال عن علاقة الشيء بذات.

٣. الافتراض بأنَّ اللغة تسيطر على الفكر ومن ثمَّ تتحكَّم بنظرة الإنسان إلى الكون والواقع ككل، مقولة مرجوحة تمامًا، ولم يبقَ لها إلا ظلال هامشية في التفكير اللساني الغربي. كما أنَّ ضبط "الجابري" العلاقة بين اللغة والفكر من زاوية "الطابع الحسي"، ينمُ عن انعدام برنامج لساني ذي تصور نظري منهجي متماسك، يؤطر فيه تناول الظاهرة اللغوية؛ بل على العكس من ذلك نجد تحليل الجابري يطبعه كثير من التعتيم والحسم في قضايا لغوية هي إلى الآن مثار نقاش وجدال في الوسط اللساني الأكاديمي. وكان أجدر بالجابري أن يؤطر تحليله هذا في إطار علمي مضبوط، وليس في إطار الإسقاطات الفلسفية كما كان عند النحاة الفلاسفة. وكان عليه تجاوز تلك العلاقة المبهمة والغامضة ذات الطابع الفلسفي الميتافيزيقي بين اللغة العربية والفكر العربي.

٤. وأخيرًا ينتهي البحث إلى أنَّ حسم القول في مثل تلك العلاقة أمر في غاية الصعوبة والتعقيد؛ لكون المسألة من الموضوعات التي لم يستقر على تحديدها الباحثون بعد، ولم يتَّفقوا على رأيٍ قاطع فيها وعلى الرغم من ذلك لا يمكن إنكار أنَّ مفردات اللغة ترمز إلى فكر. كل لفظة تشبه "**كبسولًا**"، يتضمن فكرة أو صورة ذهنية يرسخها الاختبار في العقل. ولكن هذا لا يعني أنَّه لا يمكن أن يكون هناك فكر أو صور أو حقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة، أو ليست متلبسة برمز، أي بصوت لغوي، وبالتالي فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نموه. ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع.

المصادر والمراجع:

١. أحمد إبراهيم محمد. (٢٠٠٨م). النظرية اللغوية النسبية بين التراث والدرس اللساني الحديث. جتمعة الأزهر.
٢. الزواوي بغورة. (٢٠٠٩م). ما بعد الحداثة والتنوير موقف الانطولوجيا التاريخية دراسة نقدية (المجلد ١). لبنان: دار الطليعة.
٣. بلرك جاي وون صالح. (٢٠٠٧م). نظرية الأدب واللغة عند سلامة موسى (المجلد ١). (عبد المنعم تليمة، المحرر) مصر: مكتبة الآداب القاهرة.
٤. جورج طرابيشي. (د. ت). إشكاليات العقل العربي (المجلد ٢). لبنان: دار الساقي – بيروت.
٥. د. أحمد أمين. (د. ت). فيض الخاطر (المجلد د. ط). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
٦. د. الزواوي بغورة. (٢٠١٧م). اللغة والسلطة أبحاث نقدية في تدبير الاختلاف وتحقيق الإنصاف (المجلد ١). بيروت– لبنان: دار الطليعة.
٧. د. أنيس فريحة. (١٩٨١م). نظريات في اللغة (المجلد ٢). بيروت– لبنان: دار الكتاب اللبناني.
٨. د. خليل أحمد عمارة. (٢٠٠٤م). المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي (المجلد ١). عمان – الأردن: دار وائل.
٩. د. زكي نجيب محمود. (٢٠١٨م). تجديد الفكر العربي (المجلد د. ط). القاهرة: مؤسسة هنداوي يس آي سي.
١٠. د. زكي نجيب محمود. (٢٠١٩م). أفكار ومواقف (المجلد د. ط). المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي سي آي سي.
١١. د. سلامة موسى. (١٩٣٥م). قيمة اللغة في التفكير. المجلة الجديدة.
١٢. د. سلامة موسى. (٢٠١٣م). محاولات سيكولوجية (المجلد د. ط). القاهرة– مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
١٣. د. سلامة موسى. (٢٠١٦م). دراسات سيكولوجية (المجلد د. ط). القاهرة– مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
١٤. د. سلامة موسى. (٢٠٢٠م). عقلي وعقلك (المجلد د. ط). المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي سي آي سي.
١٥. د. سلامة موسى. (د. ت). البلاغة العصرية واللغة العربية (المجلد د. ط). القاهرة– مصر: مؤسسة هنداوي سي آي سي.

١٦. د. عبد اللطيف الشيخ توفيق الشيرازي الصباغ. (٢٠٠٥م). مصطلح التنوير مفاهيمه واتجاهاته في العالم الإسلامي الحديثنظرة تقويمية (المجلد (د. ط)). المملكة العربية السعودية: منتدى الفكر الإسلامي.
١٧. د. محمد السيد الجليند. (١٩٩٩م). فلسفة التنوير بين المشروع الاسلامي والمشروع التغريبي (المجلد ١). مصر: دار قباء للنشر والتوزيع.
١٨. د. محمد عابد الجابري. (٢٠١٨م). بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (المجلد ١٣). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية– بيروت.
١٩. د. محمد عابد الجابري. (٢٠١٩م). تكوين العقل العربي (المجلد ١٤). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت.
٢٠. د. محمد عابد الجابري. (٢٠١٩م). تكوين العقل العربي (المجلد ١٤). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت.
٢١. د. محمد عابد الجابري. (٢٠٢٠م). التراث والحداثة (المجلد ٦). لبنان: مركز دراسات الوحدة الإسلامية – بيروت.
٢٢. د. نايف خرما. (١٩٧٨م). أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (المجلد د. ط). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
٢٣. د. هشام شرابي. (١٩٩٣). النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي (المجلد ٢). بيروت– لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
٢٤. د. وليد محمود خالص. (٢٠١٢م). معضلة اللغة العربية بين الجابري وطرابيشي دراسة نقدية تحليلات لمشكلات العربية في الفكر العربي الحديث (المجلد ١). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٥. عبد الله حامد حمد. (٢٠٠٠م). فرضية الحتمية اللغوية. عالم الفكر.
٢٦. عبد الله حامد حمد. (بلا تاريخ). فرضية الحتمية اللغوية. عالم الفكر.
٢٧. محمد أركون. (١٩٩٦م). تاريخية الفكر العربي الإسلامي (المجلد ٢). (د. صالح هاشم، المحرر) لبنان: المركز الثقافي العربي – بيروت.
٢٨. محمد محمد داود. (٢٠٠٩م). جدلية اللغة والفكر (المجلد د. ط). مصر: دار غريب.
٢٩. محمد همام. (٢٠٠٣م). محددات اللغة والفكر في الثقافة العربية. عالم الفكر.
٣٠. محي الدين محسب. (١٩٩٧م). اللغة والفكر والعالم دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق (المجلد د. ط). مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.